

دكتور يوسف القرضاوى

عالم وطلاغية

سعيد بن جبير... والحجاج بن يوسف

مسيرته التاريخية

الناشر

مكتبة وهيب

٤ اشاع الجمهورية. عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الثامنة
١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م

جميع الحقوق محفوظة

مطبعة المدني
المؤسسة السودانية بيمتسر
٦٨ شارع السياسية - القاهرة - ت: ٤٨٧٨٢١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

هذه المسرحية جديدة قديمة، جديدة فى صورتها هذه، قديمة فى موضوعها نفسه ..

فقد كنت كتبتها بشكل آخر منذ سبعة عشر عاماً، وقدر لها أن تمثل وأن تلقى نجاحاً وقبولاً حسناً، ثم قدر لها أن تضيع منى فلا أجد لها. وهنا تعود بى الذاكرة إلى سنة ١٩٤٩، إذ كنت أحد الطلاب الذين اختطفتهم « كلاب الصيد » وألقت بنا فى بطون المعتقلات ما بين « هاكستيب » و« جبل الطور » من أراضى مصر، وما قموا منا إلا أننا ندعو إلى الإسلام الصحيح: ديناً ودولة، عبادة وقيادة، صلاة وجهاداً، مصحفاً وسيفاً.

وفى معتقل « هاكستيب » فى الصحراء، كنت أقرأ فى كتب الأدب والتاريخ، فكان مما راقنى وأثر فى نفسى موقف سعيد بن جبير العالم الفقيه الشجاع، من الطاغية المتجبر الحجاج بن يوسف. وكان لى شغف بالأدب المسرحى حينذاك، حتى أننى ألقت - وأنا طالب بالصف الأول الثانوى - مسرحية شعرية، عنوانها « يوسف الصديق ». ولهذا رأيت قصة سعيد مع الحجاج صالحة لأن تكون مسرحية ذات هدف ورسالة، وخاصة أننا كنا نصارع طغياناً كطغيان الحجاج، فما أحوجنا إلى مواقف كموقف سعيد!! وكتبت المسرحية، ومثلت فى معتقل الطور.. وضاعت أخيراً.

واليوم يعيد التاريخ نفسه، وتكرر المأساة، ويتجدد الطغيان

والاضطهاد لحملة الدعوة الإسلامية، ولكن بصورة أعنف وأقسى، وأشد ضراوة ووحشية، وتبرز مواقف كمواقف سعيد في مواجهة طغيان أخبث وأعتى وأشد كفرا من طغيان الحجاج.

ومن هنا وجدت الدافع الذى دفعنى إلى كتابتها بالأمس، لا يزال قائما اليوم، بل هو أقوى، وبدأت أكتبها من جديد، مستلهما تاريخ تلك الحقبة الغنية بالبطولات والمواقف الرائعة إلى جوار ما حفلت به من مظالم، وماطفحت به من تجبر وطغيان، ومستهديا بشخصية سعيد بن جبير، وما عرف به من علم وإيمان وشجاعة وثبات، سجلتها لنا كتب الأدب والتاريخ والرجال.

* * *

ومن هو سعيد بن جبير؟

إنه إمام من أئمة التابعين، كان ابن عباس حير الأمة، إذا سأل أحد من أهل الكوفة فى مسألة قال: أتسألوننى وعندكم سعيد بن جبير؟ وقال فيه أحمد بن حنبل: «قتل سعيد بن جبير وما على وجه الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه».

وقد أنكر سعيد - كما أنكر غيره من الفقهاء - سيرة الحجاج فى الناس، وعلوه فى الأرض بغير الحق، وإذلاله للمسلمين، وسفكه للدماء، ووأده للحريات، وانتهاكه للحرمات.

ولهذا لم يكد القائد الداهية الشجاع عبد الرحمن بن الأشعث القيسى يعلن ثورته على الحجاج وبنى أمية، ويزحف بجنوده على العراق، حتى

انضم إليه كثير من أهل العلم والدين، وفي طبيعتهم سعيد بن جبير وعامر الشعبي ومطرف بن عبد الله بن الشخير.

ودارت المعارك بين جنود ابن الأشعث وجنود الحجاج، انتصر فيها الأول في أول الأمر.. ولكن الحجاج بدهائه وجبروته وصبره، استطاع في النهاية أن يتغلب ويهزم ابن الأشعث هزيمة ساحقة في معركة مشهودة هي معركة «دير الجماجم» فقد فر من بعدها ابن الأشعث، وقتل من قتل من أنصاره وأسر من أسر وهرب من هرب.

وكان سعيد بن جبير أحد الذين فروا واختفوا، وكان المفروض في منطق الإسلام أن يترك هؤلاء الفارون المنهزمون.. ألا يتبع مدبرهم، ولا يقتل أسيرهم، ولا يجهز على جريحهم، ولكن الحجاج لم يتقيد بهذا الحكم، فقتل كثيرا من الأسرى واتبع كثيرا من المدبرين، فجاء بهم وضرب أعناقهم. وهكذا طلب سعيدا حتى قبض عليه بعد بضعة عشر عاما، ومع هذه المدة الطويلة، لم يسامحه وكان من أمره ما كان.

ومضى سعيد بن جبير مثلا في تاريخ الإسلام للعلماء المجاهدين، والدعاة الصادقين ﴿الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله، وكفى بالله حسيباً﴾.

المؤلف

الدوحة في: ذى الحجة سنة ١٣٨٧هـ

شباط (فبراير) سنة ١٩٦٨م

الفصلُ الأوّلُ

(من منظر واحد)

الزمان: عصر بنى أمية فى عهد عبد الملك بن مروان وفى ولاية الحجاج على العراق .

المكان: مدينة واسط بالعراق وقد اختطها الحجاج بين الكوفة والبصرة .
الأشخاص: الحجاج وقد تصدر مجلس الإمارة فى زهو وخيلاء وحوله أربعة من حاشيته وحراس مسلحون .

* * *

أحد الحاشية: هنيئاً لك أيها الأمير ما أحرزت من نصر على أعداء أمير المؤمنين وأعدائك .

ثان: إن العراق كله يتحدث عما أيد الله به الخليفة على يدك وعن هزيمة الفاتن المفتون ابن الأشعث وأنصاره المخذولين .

ثالث: لقد غر هؤلاء الطامعين تسامح الأمير ولين جانبه وشفقته على الرعية فجرأهم ذلك على الثورة والعصيان المسلح ولكنهم علموا من هم ومن هو الحجاج .

الحجاج: (فى زهو وكبرياء) لقد ظن ابن الأشعث أنه بانضمام الفقهاء إليه من أمثال سعيد بن جبير يستطيع أن يكسب المعركة، ولكن هيهات . هيهات . إن سيف الحجاج لا يكسر، وجند بن مروان لا يقهر . وعند « دير الجماجم » الخبير اليقين .

رابع: لقد حدثنى أيها الأمير من شهدوا معركة «دير الجماجم» كيف عملت سيوفك فى ابن الأشعث وأتباعه، وكيف تطايرت رؤوسهم وتناثرت أشلاؤهم، فلما حقت عليهم الهزيمة استسلموا للأسر أو الفرار.

الحجاج: إن هؤلاء لم يتعضوا بما جرى لابن الزبير وغير ابن الزبير على يد الحجاج، فكان عاقبتهم ما ترون!! فليوقدوا ما شاءت لهم ظنونهم من نار الفتن فانا لها. أنا لها!!

الثالث: (مرة أخرى) ولكن أيها الأمير إياك أن تأخذنك الرافة بأسرى المعركة الذين لم يستسلموا إلا مرغمين وصدورهم تغلى حقدا عليك وعلى بنى أمية. ولا تنس هؤلاء الفقهاء الذين أيدوا ابن الأشعث وناصروه لا بمجرد الكلام بل بحد الحسام، وبخاصة ذلك الشيخ المسمى سعيد بن جبير.

الحجاج: نحن بانتظار كتاب من أمير المؤمنين فى شأنهم ولعله يصل اليوم. الأول: أمير المؤمنين لا يأمر فيهم بغير السيف جزاء ما قدمت أيديهم. ومن سل سيف البغى قتل به.

الثانى: صدقت، والبادى أظلم.

الحاجب: وصل بريد أمير المؤمنين.

الحجاج: هو ما كنا ننتظره، ايتنى بالكتاب.

(الحجاج يفض الكتاب، ويقرأ بصوت مسموع): «سلام عليك

وعلى من معك . أما بعد : فكل من شارك فى فتنة ابن الأشعث
فى معركة « الجماجم » فأعرضه على السيف ، فمن أقر منهم
بالكفر بخروجه علينا فخل عنه ، ومن أبى وزعم أنه مؤمن فاضرب
عنقه . والسلام .»

الحجاج : (لحاجب) ناد رئيس الشرطة .

(يخرج الحاجب فيناديه فيدخل) .

رئيس الشرطة : لبيك أيها الأمير .

الحجاج : اذهب إلى السجن فأحضر المتهمين بعد أن تقرأ عليهم كتاب أمير
المؤمنين .

رئيس الشرطة : سمعا وطاعة أيها الأمير .

(يخرج ، وبعد لحظات يدخل الحاجب)

الحاجب : بالباب شيخ كبير يقول : إن له حاجة إلى الأمير .

الحجاج : ردوه . ليس هذا هو يوم الحوائج ، وطلاب الحوائج .

الحاجب : لقد انتهره الشرطة فبكى وصاح ، وقال : إما أن تقتلونى ، أو
تدخلونى على الأمير . وهو شيخ مقوس الظهر تشتعل لحيته
شيباً .

الحجاج : أدخله إذن .

(يدخل شيخ وقور ذو لحية بيضاء)

الشيخ: السلام عليك أيها الأمير .

الحجاج: وعليكم السلام . ما حاجتك؟

الشيخ: لقد أخذتم ابني منذ سنة أو أكثر، فلا أنتم أطلقتموه، ولا أنتم حققتم في أمره . وإن له لأمأ عجوزاً لا يرقأ لها دمع من أجله، وأختا أرملة هي أم لايتام ثلاثة، وهو العائل الوحيد لهذه الأسرة كلها، والاعتماد - بعد الله تعالى - عليه .

الحجاج: (غير مكترث) ولماذا أخذناه؟

الشيخ: (محتداً) عجباً: أتخبسون الناس ولا تدرّون لماذا حبستموهم؟!

الحجاج: (متلطفاً) يا شيخ، المحبوسون كثيرون، ولكل منهم جنايته وتهمته .

الشيخ: إن ابني لم يرتكب جناية ولا بعض جناية . كل ما في الأمر أن أحد أفراد العشيرة قد اتهمه عمالك، فطلبه ليقبض عليه فلم يجده، فأخذ ابني مكانه .

الحجاج: هذا يحدث . والأجرب قد يعدى السليم . فإن أردت أن تفرج عن ابنك فأحضر الرجل الهارب . أما سمعت قول الشاعر:

ولرب مأخوذ بذنب عشيره ونجا المقارف صاحب الذنب!

الشيخ: (في صرامة) ولكنني سمعت الله تعالى قال غير ذلك! .

الحجاج: وماذا قال؟

الشيخ: قال تعالى على لسان يوسف: ﴿ معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا

متاعنا عنده إنا إذن لظالمون ﴿﴾ .

فهل نصدق الله تعالى أم نصدق الشاعر؟!

الحجاج: أفحمتنى أيها الشيخ وقطعت حجتي . أطلقوا سراح ابنه .

أحد الحاشية: يا للعدل!! حيا الله الأمير العادل .

ثان: أميرنا وقاف عند كتاب الله .

آخر: الأمير لا يظلم مثقال ذرة .

(يخرج الشيخ .. وبعد لحظات يدخل الحاجب) .

الحاجب: رئيس الشرطة قد حضر ومعه المتهمون .

الحجاج: أدخلهم واحدا بعد الآخر .

(يدخل رجل عليه سيما الفروسية، فينظر إليه الحجاج بغیظ

وتجهم) .

الحجاج: أنت أيضا؟؟ فى كل فتنة نراك! بالأمس كنت مع ابن الزبير،

واليوم مع ابن الأشعث، ولو أن فتنة قامت فى بلاد واق الواق

لكنت أحد دعائها . ماذا جنيت أيها المنافق المغرور غير ذل الهزيمة

وعارها؟!

الرجل: (بشبات واعتداد) والله ما ذل ذو حق، ولو تألبت عليه الدنيا

كلها، ولا عز ذو باطل ولو طلع من جبينه القمر!

الحجاج: (مهيدا) قتلنى الله إن لم أقتلك!

الرجل: ولكن عاملك أعطاني الأمان، على عهد الله وميثاقه.

الحجاج: وهل رعيت لله عهداً حتى نرعى عهدك؟

الرجل: أو تغدر بي يا حجاج وتنكث عهد الله من بعد ميثاقه؟

الحجاج: (متهرباً من الإجابة) أخبرني: ما الذي أخرجك علينا هذه المرة؟

الرجل: (باعتداد وقوة) ما أخرجني من قبل، وسيخرجني من بعد. إنكم

تريدونها ملكاً عضوضاً ونحن نريدها خلافة وشورى. تريدونها

كسروية أو قيصرية. ونحن نريدها قرآنية إسلامية.

الحجاج: (ساخراً) أو تعلمنا أنت الإسلام وفيه شابت نواصينا؟

الرجل: أو يجهل أحد أن سفك الدماء ومصادرة الأموال وإخافة المسلمين،

منكر عظيم لا يقره الإسلام؟

الحجاج: إنما تؤدب أمثالك من البغاة المفسدين.

الرجل: وهبني كنت باغياً، فهل عاملتنا بما يعامل به البغاة في شرع الله؟

إن البغاة لا يتبع مدبرهم، ولا يقتل أسيرهم، ولا يجهز على

جريحهم، ولا يؤخذ مالهم.

الحجاج: ولكنكم لستم مجرد بغاة، إنكم كفرتم بنقضكم البيعة

وخروجكم على أمير المؤمنين.

الرجل: إنما خرجنا على الظلم والطغيان بعد أن نفذ صبرنا، ولم يخرج ابن

الأشعث وحده، لقد خرج معه شعب العراق، يتقدمه علماء

العراق. فهل هؤلاء العلماء كفار منافقون؟ وأنت وجنودك

يا حجاج المسلمون المؤمنون التائبون العابدون؟

الحجاج: (مغضبا) أتسخر بي أيها الخبيث؟ لالحقنك بإمامك المفتون

الفتان ابن الأشعث، اذهبوا به فاضربوا عنقه.

(ثم تلفت إلى الرجل في شماتة قائلا):

لتعلم أينما المقتول المخذول؟ أنا أم أنت؟!

الرجل: إني أحسبك أنك لن تموت مقتولا يا حجاج.

الحجاج: ولم أيها المتنبىء؟

الرجل: لأنى سمعت الصالحين من أمثال الحسن البصرى وسعيد بن جبير

يدعون الله ألا يميتك مقتولا، وألا تموت إلا على فراشك.

الحجاج: (مبتهجا) الحسن وسعيد يدعوان الله أن أموت على فراشى؟!

الرجل: أجل يا حجاج، ليدخر الله عذابك كله إلى الآخرة، وهو أشد

وأخرى.

الحجاج: (هائجا) اقتلوا الملعون. اذهبوا به إلى الجلاد.

أحد الحاشية: إنه يستحق.

ثان: هذا أقل ما يجزى به مثله.

آخر: وجزاء سيئة سيئة مثلها.

(يدخل من المتهمين شيخ من بنى تميم وشاب من بنى بكر).

الحجاج: (للشباب) أمؤ من أنت أم كافر يا بكرى؟

الشاب: أتريدنى كافراً أم مؤمناً؟

الحجاج: (فى صرامة) لا مكان للجدل . كافر أم مؤمن؟

الشاب: بل كافر .

الحجاج: (فى خبث) لكن الشيخ التميمى لا يرضى بالكفر!

الشيخ: أعن نفسى تخادعنى يا حجاج؟ والله لو كان شىء أعظم من الكفر لرضيت به حتى أنجو من سيفك . (فضحك الحجاج وأمر بتخلية سبيله) .

(ثم يتقدم إليه الرجل)

الحجاج: على دين من أنت؟

الرجل: على دين إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين .

الحجاج: اضربوا عنق هذا الكذاب .

(ثم يقدم رجل آخر)

الحجاج: على دين من أنت؟

الرجل: على دين أبىك الشيخ يوسف!

الحجاج: أما والله لقد كان صواماً قواماً . خل عنه يا غلام .

(الغلام يفك قيد الرجل فيدنو من الحجاج ويقول له فى تحد):

الرجل: يا حجاج: سألت صاحبى: على دين من أنت؟ فقال: على دين

إبراهيم حنيفاً، فأمرت به فقتل . وسألتنى نفس السؤال فقلت:

على دين أبيك الشيخ يوسف، فقلت: أما والله لقد كان صواما
قواما. وأمرت بتخلية سبيلي.

الحجاج: (يهز رأسه) نعم نعم .

الرجل: والله يا حجاج لو لم يكن لأبيك من السيئات إلا أنه ولد مثلك
لكفاه ذلك شرا.

(الحاشية ينظر بعضهم إلى بعض في دهشة وذهول وهممة).

الحجاج: (فى هياج وانفعال) اقتلوه . اقتلوا الخبيث الملعون اضربوا عنقه .
(ثم يدخل شاب عليه سيما الصلاح اسمه ثابت) .

أحد الحاشية: (هامسا فى أذن الحجاج) هذا من تلاميذ سعيد بن جبيرة !!

الحجاج: أنت من تلاميذ الشيخ الضال المضل سعيد بن جبيرة؟!

ثابت: لا .

الحجاج: أو تنكر صلتك به؟

ثابت: الشيخ الذى ذكرته لا أعرفه، إنما أعرف الشيخ الصالح المصلح
العالم المجاهد سعيد بن جبيرة!!

الحجاج: الخارج على الخلافة، والساعى فى الفتنة، صالح مصلح أيها
الجاهل المنافق؟

ثابت: من خرج على دين الله حق للناس أن يخرجوا عليه، والفتنة حقا هى
اضطهاد العلماء والصالحين وتعذيبهم بغير حق . ألم تقرأ

يا حجاج قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ .

الحجاج: هذا علم سعيد بن جبير؟

ثابت: بل هذا كلام الله وكلام رسوله .

الحجاج: والذي تحلف به، لأحصدنكم واحدا بعد الآخر حتى لا أبقى منكم باقية .

ثابت: أنت تحصد والله يزرع . فانظر أين قدرة المخلوق من قدرة الخالق!؟

الحجاج: اقتلوا هذا المتعالم (ثم يلتفت إليه ويقول في سخرية): لعل شيخك الصالح المصلح ينفكك اليوم!؟

ثابت: النفع والضرب بيد الله ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ وعلى مثل هذا اليوم وطنا أنفسنا... لقد تمت الصفقة على يدك يا حجاج! .

الحجاج: أى صفقة أيها الجاهل المتعالم؟

ثابت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ وهذا يوم تسلم السلعة لتتسلم الثمن: الجنة يا حجاج ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾!؟ .

الحجاج: لن تجد هناك إلا النار . عجلوا به . اضربوا عنقه .

ثابت: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ، إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾

(يذهبون بثابت إلى السياف)

الحجاج : من بقى من هؤلاء المارقين؟؟

رئيس الشرطة: بقى عامر الشعبي، ومطرف بن عبد الله وأما سعيد بن جبير فقد فر واختفى كما تعلم.

الحجاج: أو عجزتم بقضكم وقضيضكم عن تتبع ابن جبير والقبض عليه؟
رئيس الشرطة: أيد الله الأمير. إن بلاد الخلافة واسعة، وفي استطاعة أى إنسان أن يهرب ويختفى أياما تطول أو تقصر. ولكن لا بد من معرفة مخبئه، والعثور عليه فى القريب العاجل.

الحجاج: أبقوا الاثنين فى السجن حتى نظفر بثالثهم، ولن يفلت ابن جبير من قبضتى. أنا الحجاج. أنا ابن يوسف!!

«ستار»

الفصلُ الثاني

(المنظر الأول)

(سعيد بن جبير مختفيا في بيت أحد تلاميذه بمكة، وقد جلسوا حوله في صورة حلقة علمية).

سعيد: بسم الله الرحمن الرحيم . نحمد الله ونصلي ونسلم على رسوله وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه .

أما بعد، فقد روى معاذ بن جبل عن النبي ﷺ أنه قال: «لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسئل عن أربع: عن عمره فيم أفناه؟ وعن شبابه! فيم أبلاه؟ وعن ماله! من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ وعن علمه، ماذا عمل فيه.»

هذا الحديث أيها الأبناء يلقي تبعة جسيمة على حملة العلم، فإن الله سائلهم غدا عن علمهم ماذا عملوا فيه كما يسأل كل مكلف عن نعمه تعالى عليه: ماذا صنع بها؟.. نعمة الحياة، ونعمة الشباب، ونعمة المال، وأخيرا نعمة العلم، الذي ميز الله بها الإنسان عن الحيوان . العلم يا أبنائي نعمة جليلة يمنحها الله من يشاء من عباده، وشكر هذه النعمة: العمل بها وتعليمها للناس، فمن علم وعمل بما علم، فذلك هو العالم الرباني، ومن علم علما فكتمه عن الناس وهم محتاجون إليه أجم يوم القيامة بلجام من نار، ومن علم ولم يعمل بما علم، فمثله كمثل الحمار يحمل أسفارا، ولهذا كان أخوف ما يخاف النبي ﷺ على أمته من

بعده : المنافق العليم .

أحدهم : (متعجبا) المنافق العليم ؟ كيف يكون المرء عليما ومنافقا فى الوقت نفسه ؟

سعيد : عالم اللسان ، فارغ القلب من خشية الله تعالى . عن على بن أبى طالب أن رسول الله ﷺ قال : « أما أنى لا أتخوف عليكم مؤمنا ولا مشركا . فاما المؤمن فيحجزه إيمانه . واما المشرك فيقمعه كفره . ولكن أتخوف عليكم منافقا عالم اللسان يقول ما تعرفون ، ويفعل ما تنكرون » . ذلكم يا أبنائى هو الذى امتلا رأسه بالمعرفة ، وفرغ قلبه من الخشية .

تلميذ : وما علامة خشية الله ؟

سعيد : علامة الخشية لله أن تحول بينك وبين معصية الله .

تلميذ : وما الذى يعين المرء على خشية الله ؟

سعيد : ذكر الموت والآخرة ، فهو الذى يجلو صدأ القلوب ، ويخفف من غرور الإنسان بالحياة الدنيا ، وقد ترك فىنا رسول الله ﷺ واعظين : ناطقا وصامتا . فالناطق هو القرآن ، والصامت هو الموت ، وكفى بهما واعظين !! وإنى لو فارقتى ذكر الموت خشيت أن يفسد على قلبى .

تلميذ آخر : هل يفهم من ذلك أن المؤمن يحتقر الحياة أو يكرهها ؟

سعيد : لا يا بنى ، إن كل يوم يعيشه المؤمن غنيمة ، فيه يعبد ربه ، أو ينفع

خلقه، أو يصلح نفسه، فالدنيا عنده مزرعة للآخرة، يبذر فيها اليوم ليحصد غداً.

(ثم يوجه الحديث إلى الجميع)

يا أبنائي! إن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة ومن هوانها على الله أن لا يعصى إلا فيها، وأن أعداءه تعالى فيها يتمتعون ويتجبرون، وأوليائه وأحباؤه يضطهدون ويشردون. فإياكم أن تلهيكم دنياكم عن آخرتكم، إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولكنه لا يعطي الدين إلا من أحب، ولا دين إلا بالعلم، ولا علم إلا بالعمل، ولا عمل إلا بالإخلاص، وإنى أدعوا ربى عز وجل أن يجعلكم ذخراً لي من بعدى، وأن يمدكم بتوفيقه ورعايته، حتى تكونوا من الذين يعلمون فيعملون، ويعملون فيخلصون، ويخلصون فيقبلون.

تلميذ آخر: كأنها يا أبا عبد الله وصية مودع!!

سعيد: أى والله. فمن يدري! لعل هذا اللقاء هو آخر العهد بكم فى هذه الدار الفانية.

تلميذ: أطال الله حياة الشيخ وأدام النفع به.

سعيد: قد علمتم أن هذا الرجل قد بث عيونه وجنوده يبحثون عنى فى كل مكان، وما أراه إلا مدركى، وما أراه إن أدركنى إلا قاتلى.

الطلاب: (فى لهفة وجزع) نفديك بدمائنا وأرواحنا وما ملكت أيدينا.

سعيد: إن الموت نهاية كل حى، ومن لم يمّت بالسيف مات بغيره.

وطعم الموت فى أمر حقير كطعم الموت فى أمر عظيم

ولا أقول إلا ما قال الصالحون: ﴿ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين﴾. وسأخبركم: أنى جلست يوما وصاحبين لى، فوجدنا حلاوة الدعاء فدعونا كل بما فى نفسه، فكلنا سأل الله الشهادة فى سبيله، فأما صاحباى فاستجاب الله لهما، وفازا بها، وأما أنا فانتظرها وأرجوها.

تلميذ آخر: وكيف نسكت على هذا الطاغية الجبار؟

سعيد: يا بنى! إن لله أمرا لا يد أن ينفذه، فقد ثرنا معشر الفقهاء على هذا الرجل، وانضممنا إلى ابن الأشعث فى قتاله، تركنا الكتب وجهزنا الكتائب، وودعنا الأقلام، وحملنا السيوف، واستبدلنا بمداد العلماء دماء الشهداء.. أردنا أمرا وأراد الله غيره، امتحانا لإيماننا وصبرنا، فقتل منا من قتل، وأسر من أسر، وفر من فر..

طالب: وهل على أهل الحق من جناح إذا غلبوا أمام طغيان المبطلين؟

سعيد: لا جناح ولا إثم – إن شاء الله – إنما يكون الإثم إذا رضينا بالمنكر أو أعنا على ظلم. أما إذا سعينا واجتهدنا فهذا ما نملكه، ولا نملك النتائج. إن الله تعالى لا يسألنا: لم لم تنجحوا؟

ولكن يسألنا لم لم تعملوا؟

الطالب عمير: ولكن! أما لهذا الليل من آخر؟ أیظل الحق كسير الجناح؟

يقتل دعائه ويعذب أهله وأنصاره؟! بينما الباطل يصعر خديه،
مختالا بعدده وعدته، يحكم فى الدماء والأموال والحرمان بما
يريد، ولا معقب ولا معارض؟! ألسنا على الحق وهؤلاء الظلمة
على الباطل؟!!

سعيد: شكلك أمك يا عمير. أو فى شك أنت من ذلك؟ والله لو قطعونا
إربا إربا، حتى تخطفنا الطير، وتوزعتنا بطون السباع، ما شككنا
أنا على الحق، وهم على الباطل.

عمير: فما بالهم ينتصرون وينتصرون؟ ونحن ننهزم وننهزم؟

سعيد: ويحك، إنما ننهزم حقا يوم نشك فيما ندعو إليه من حق، أو نغتر
بما هم عليه من باطل، إن صاحب الحق الأعزل إذا ثبت على حقه
فى وجه الباطل المدجج بالسلاح فقد انتصر. . انتصر وإن كان فى
نظر قصار النظر مغلوبا مهزوما. هل أضرب لكم مثلا؟

إن أبرز مثل فى تاريخنا هو رسول الله ﷺ يوم الهجرة: يوم أخرج
من داره وبلده مضطهدا مطاردا مستخفيا فى جوف غار معتم،
ترى ماذا تعتبرونه فى هذا الموقف؟ هل كان منهزما أم كان
منتصرا؟

(الطلاب سكوت لا يجدون جوابا)

سعيد: ما لكم لا تجيبون؟

أحد الطلاب: أى مؤمن يجرؤ على أن يصف رسول الله بالهزيمة وهو الذى
أيده الله بنصره؟

سعيد: أصبت وأحسنت، فهل كان في هذا اليوم منتصرا؟

(الطالب يرتبك ولا يحسن الإجابة)

سعيد: أما أنا فلا أعد هذا اليوم إلا يوما من أيام النصر والعزة في الإسلام .
وما لى لا أفعل وقد جعله الله كذلك فى كتابه المبين، استمعوا
معى إلى هذا الخطاب الإلهى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ
أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنِينَ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ
لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، فقد نصره الله إِذْنِ فى هذا اليوم، يوم الغار،
فمن يجرؤ على أن يسمى الرسول منهزما فيه، وقد نصره الله؟

إن عمر الفاروق الملهم قد لمح ببصيرته هذا المعنى الكبير فى يوم
الهجرة فجعله مفتتح تاريخ الإسلام، وليس معقولا أن يبدأ تاريخ
المسلمين بيوم انهزم فيه الإسلام .

عمير: معذرة يا أستاذنا، فلعلى أغضبتك بكلمتى . وإنما قلت ما قلت،
لأن الإنسان خلق من عجل، وكلما رأيت المحن والآلام والنكبات
تنزل بساحة المؤمنين الدعاة إلى الله، ذهب الصبر، وضاق الصدر،
وخاصة أنى أرى دعاة الباطل الذين يفسدون فى الأرض ولا
يصلحون، يعيشون فى نعيم وعافية، وقد أخذت الأرض لهم
زخرفها وازينت، وظنوا أنهم قادرون عليها .

سعيد: مهلا يا بنى . إن المحن والآلام لا بد منها لحملة الرسالات، وورثة
النبوات، ليبتلى الله ما فى صدورهم، وليمحص ما فى قلوبهم،
وليميز بها الخبيث من الطيب . أما ما يسرح فيه أهل الباطل من

نعيم وعافية، فإنه مكر من الله بهم، وإملاء منه لهم، حتى يقيم عليهم الحجة، ويقطع عنهم الأعذار، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، كما قال في قوم من هؤلاء: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون. فقطع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين﴾.

وإن سنة الله يا بنى، هي مداولة الأيام بين الناس، فيوم لك ويوم عليك، ولكن المدار على العاقبة، والعاقبة للمتقين.

هل فهمت يا عمير واطمأن قلبك؟ أم لا يزال فى صدرك حرج؟

إن كان ذلك يا بنى، فإنك فى حاجة إلى أن تقرأ القرآن من جديد، وأن تفتح له عقلك وقلبك، لتعرف كيف يبتلئ الله عباده بعضهم ببعض. ليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين. ألم تقرأ أول سورة العنكبوت: ﴿ألم. أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾. ألم تقرأ قوله تعالى فى سورة الفرقان: ﴿وجعلنا بعضهم لبعض فتنة أتصبرون﴾ ١٩.

وقوله سبحانه فى سورة القتال: ﴿ذلكم ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوا بعضكم ببعض﴾. وفى السورة نفسها يقول: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم﴾.

والله ما زال البلاء ينزل بأصحابى من حولى وأنا فى عافية، حتى

احتقرت نفسى، وظننت أن ليس لله فى حاجة حتى نزل بى
البلاء، فرجع إلى الأمل أن أدرك أصحابى، وأنال حظا مما يناله
الدعاة إلى الله .

عمير: جزاك الله عنا خير ما يجزى به أئمة الهدى . لقد - والله - حبيت
إلى البلاء .

سعيد: إن المؤمن يسأل الله العافية، ولا يتمنى البلاء، فإذا نزل به صبر
صبر الأبطال .

(يدخل أحد الشرطة فجأة على سعيد وتلاميذه فيسألهم) .

الشرطى: مكانكم . علمت أن فيكم هنا سعيد بن جبير، فأياكم هو؟
التلاميذ: (فى صوت واحد) أنا .

الشرطى: يا عجباً! كلكم سعيد بن جبير؟

التلاميذ: أجل! كلنا سعيد بن جبير .

الشرطى: سعيد بن جبير واحد أم عشرة؟ سعيد واحد منكم، فدلونى
عليه واختصروا الطريق، وإلا أبلغت عنكم الوالى، فحقت العقوبة
عليكم جميعاً .

أحدهم: أنا سعيد بن جبير .

آخر: لاتصدقه .. أنا سعيد .

ثالث: لاتصدقهما .. أنا والله سعيد .

الشرطى: وتحلف بالله أنك سعيد؟!

سعيد: لا تصدقهم يابنى . أنا سعيد، وهؤلاء تلامذتى . هل تظن سعيد ابن جبير شابا؟! إن سعيدا فى السابعة والخمسين، وهؤلاء شباب كما ترى، فكيف تصدق أن أحدهم سعيد بن جبير؟!!

الشرطى: هذا صحيح . كيف غاب عنى هذا؟

(ثم يلتفت إلى الذى حلف منهم أنه سعيد):

كيف حلفت بالله يا هذا أنك سعيد؟ طالب علم وتحلف كاذبا؟!

التلميذ: ما حلفت كاذبا ولا عدوت الصديق قط . قلت : أنا والله سعيد . وهذا حق . فإنى - وأيم الله - سعيد كل السعادة إذا فديت فقيه الإسلام سعيد بن جبير .

الشرطى: ما رأيت كالسيوم فى الإيثار والفداء . قاتل الله الحجاج، يتخذنا أدوات لإيذاء المسلمين وتعذيب أهل العلم والدين، سحقا لهذه الوظيفة السيئة ..

(ثم يلتفت إلى سعيد ويقول):

يا شيخ، إنى والله تاركك، وإنى لأرجو أن ألقى الله ويدي بريئة من القبض عليك، وتسليمك للظلمة الجبارين! وأنتم يا أبناء الشيخ . أناشدكم الله ألا تخبروا أحدا بأنى رأيتكم أو رأيتمونى، فإن الطاغية لو علم ذلك لم يكتم لديه عقاب إلا ذبحى .. إلا ذبحى (ويشير إلى رقبته) والله لولا أفراخ صغار أعولهم ما بقيت فى هذا

العمل يوما واحدا . اللهم عفوك وغفرانك (يسير الشرطي
خطوتين ثم يعود فيقول) : الأفضل أن يترك الشيخ هذا البيت إلى
بيت بعيد عن أرجل الناس وأنظارهم ، عسى الله أن يعمى عنه
أعين الظالمين .

أحد التلاميذ : الحمد لله . لن يزال الخير في هذه الأمة إلى يوم القيامة ، من
كان يظن أن مثل هذا الشرطي يحمل مثل هذا القلب ؟!

(يخرج الشرطي . ويلتفت سعيد إلى تلاميذه)

سعيد : لقد أخرجتكموني أيها الأبناء الكرام بصنيعكم . وإنى والله لأعجز
من أن أشكركم ، فادع ذلك لربي يتولى جزاءكم عنى ، إنه غنى
حميد .

يا أبنائي ! إن الذين يجتمعون على الدنيا اليوم ، يفترقون من أجلها غدا ،
وأن الرابطة التي لا تنفصم عراها ، هي رابطة الدين . رابطة
التقوى ، فاحرصوا على أن تظل رابطةكم لله وفي الله عز وجل ، فإن
ما كان لله دام واتصل . ألم تقرأوا قول الله تعالى : ﴿ الأخلاء يومئذ
بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ .

أستودعكم الله يا أبنائي .

(ستار)

(المنظر الثاني)

(سعيد فى بيت بعيد عن العمران فى أطراف مكة، فيدخل عليه صديق له هو أبو حصين).

أبو حصين: أتدرى يا أبا عبد الله ما قال والى مكة الجديد للناس فى المسجد؟

سعيد: ماذا قال؟

أبو حصين: قال: والذى نحلف به ونحج إليه، لا أجد سعيدا إلا قتلته وهدمت داره. وقد أجلت لكم فيه ثلاثة أيام. هكذا قال الوالى وهو يرغى ويزيد. وقد بلغنى أن رجلا دله على مكانك هذا، ولا بد أنه مرسل فى طلبك. فأطعنى واخرج من هنا.

سعيد: يا أبا حصين، والله لقد فررت واختفيت، حتى استحييت من الله، فدعنى هنا حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا.

أبو حصين: والله إنى لأراك كما سمتك أمك سعيدا. أستودعك الله.

سعيد: أستودعك الله الذى لا تضيع ودائعه.

(يخرج أبو حصين، وبعد قليل يطرق الباب طارق، ويدخل رجل أرسله الوالى للقبض عليه).

الرجل: لقد عرف الوالى مكانك فأرسلنى إليك، وأمرنى أن آخذك واذهب

بك إليه، وإنى أعوذ بالله من ذلك .

فالحق بأى بلد شئت وأنا معك .

سعيد: لقد فررت واختفيت حتى استحييت من ربي، وما قدره الله كائن .

الرجل: إنما نفر من قدر الله إلى قدر الله . وإنى لا أخاف عليك بقدر ما

أخاف على هذه الأمة، أن يحل بها سخط الله إذا قتلت علماءها .

فأطعنى ولنخرج معاً، كما خرج موسى فاراً من فرعون ﴿ قال رب

نجنى من القوم الظالمين ﴾ .

سعيد: (وقد أثر فيه كلام الرجل) ألك ههنا أهل وولد؟ .

الرجل: نعم .

سعيد: إذن يأخذوهم ويصيبهم من المكروه ما كان سيصينى .

الرجل: إنى أكلهم إلى الله .

سعيد: لا والله . لا أكون سبباً فى إيذاء مسلم أبداً . . نفذ ما أمرت به،

وسيجزيك الله بحسن نيتك .

الرجل: الوالى سيبعث بك إلى الحجاج، وهو من تعلم عتوا واستكبارا

وقسوة .

سعيد: لتكن مشيئة الله . لا حرج عليك . نفذ ما أمرت به .

الرجل: لقد رضيت أن أكون رسول الوالى إليك، لأفرك إلى مكان أمين .

فكيف تطاوعنى نفسى أن أضع الوثاق فى يديك وأسلمك لمن

لا يرحم؟! .

اصنع معروفًا وهيا نخرج من هنا .

سعيد : سيؤذى أهلك وأولادك بسببى ، ولا تطاوعنى نفسى بذلك أبداً ،
ولو أصابنى ما أصابنى . افعل ما أمرت به ، هاك يدى فأوثقهما .

الرجل : (وقد ذرفت عيناه - يتقدم فيوثق يديه ويقول) : لا راد لما قضاه
الله ، اللهم إنك تعلم أنى لذلك من الكارهين . إنا لله وإنا إليه
راجعون !

(ستار)

الفصل الثالث

(المنظر الأول)

(زنانة في سجن تضم في أحشائها ثلاثة من الفقهاء : عامر الشعبي ، ومطرف بن عبد الله ، وسعيد بن جبير) .

الشعبي : ماذا عندك هذا الصباح يا مطرف ؟

مطرف : رؤيا رأيتها استبشرت بها خيرا ، وأولتها أنى أخرج من هذا السجن الكئيب .

سعيد : (كالمعترض) ليس الخير دائما في الخروج من السجن ، إنما الخير دائما في الثبات على الحق . إن يوسف الصديق عليه السلام خير بين الفاحشة وبين السجن فقال : ﴿ رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ﴾ .

الشعبي : ولكنه ليس السجن فقط يا أبا عبد الله ، إنه القتل .. إنه الذبح !
سعيد : ﴿ ولئن قتلتهم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون ﴾ .

مطرف : أتريد أن تسلم رقبتك إلى هؤلاء الطغاة وهم لا يخشون الخالق ولا يرحمون المخلوق ؟!

سعيد : (مشيرا إلى رأسه) وماذا على ابن جبير إذا فصل هذا عن هذا في

سبيل الله! (فى عنف وإنكار) أنسيتم يا قوم ما يريد هؤلاء منكم؟ يريدون أن تعترفوا أمامهم أنكم خوارج مارقون، وأنكم كفرتم بخروجكم عليهم، فهل تقرون بالكفر؟

الشعبى: يا أبا عبد الله ﴿إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾ .

سعيد: وأنت يا مطرف تنوى أن تعترف أمام الطاغية بأنك كافر؟

مطرف: يا أبا عبد الله، إن فى المعاريض مندوحة عن الكذب . سأقول كلاما ملفوفا على سبيل التورية . أهرب به من الجواب الصريح .

فلماذا لا تصنع مثلما نصنع وتنجو برأسك يا سعيد؟

سعيد: وما رأس سعيد فى رؤوس الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين؟ ألم ينشر نبي الله زكريا بالمنشار فرقتين؟ ألم يذبح السيد الحصور يحيى؟ ألم ترووا عن النبي ﷺ: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»؟ ألم يمت عمر وعثمان وعلى والحسين رضى الله عنهم مقتولين ظلما؟ .

الشعبى: بلى .. وقد قلت كلمة الحق، بل قاتلت من أجلها .. ثم أراد الله لنا ما ترى .. فلا بد من الصبر، حتى تنهيا لنا فرصة أخرى .

سعيد: سأظل على كلمة الحق أحييا بها وأموت عليها، وأتحدى بها جيروت الطغاة . والله غالب على أمره .

مطرف: وهبك قلت اليوم كلمة الحق صريحة مرة، فهل يزول جيروت الطغاة أو طغيان الجبابرة؟ وتنحل العقدة؟

الشعبي: كلا، سيقتل سعيد بن جبير، العالم الفقيه وسيبقى الحجاج ..
الطاغية الظالم، وستبقى دولة الظلم والطغيان كما هي .

سعيد: (في غضب) ما هذا الذي أسمع منكما؟ أمثلكما يقول هذا الكلام؟ متى كان الحرص على الحياة غاية الأنبياء وورثة الأنبياء؟ والله إن كل شهيد يسقط في سبيل الحق ليزلزل الأرض تحت أقدام الطغاة. وقد يبقى الطغيان حيناً من الدهر، ولكنه سيبقى مرتجف الأوصال محروماً من الأمن والطمأنينة وراحة البال . على أن شجرة الإسلام لا يرويها إلا هذه الدماء التي تثبت أن الأمة لاتزال بخير، وأن فيها من يبيع نفسه لله طائعا مختاراً .

(الشعبي ومطرف يتأثران بحديث سعيد ولهجته القوية) .

الشعبي: معذرة يا أبا عبد الله . فما نحن إلا حريصون عليك وعلى انتفاع الأمة بك . فالناس محتاجون إليك يا سعيد، محتاجون إلى علمك وفقهك .

سعيد: يا شعبي، كما يحتاج الناس إلى من يعلمهم الفقه، يحتاجون إلى من يعلمهم الثبات على الحق في وجه الجبابرة الطغاة .

مطرف: ما أرانا إلا في مقام دون مقامك يا سعيد . دعه يا شعبي فوالله لكأني أنظر إلى دم الشهادة يترقق في وجهه .

سعيد: ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ .

(السجنان يفتح الباب ويدخل معه ثلاثة . يغلق عليهم باب

الزنازة . الجميع صامتون) .

(أحد الثلاثة يشق هذا الصمت ، ويدنو من الشيوخ الثلاثة ،
ويوجه إلى مطرف بن عبد الله هذا السؤال) :

الرجل : أفتنى يا شيخ ، نفع الله بك .

مطرف : هذان إماما الكوفة وفتيهاها يفتيانك .

الرجل : من هما ؟ يرحمك الله !!

مطرف : أما هذا فسعيد بن جبير ، وهذا عامر الشعبي .

سعيد : وهذا مطرف بن عبد الله .

الرجل : لا حول ولا قوة إلا بالله ! العلماء يسجنون ويعذبون ! والفسقة
الظلمة يسرحون ويمرحون .

(يتوجه الرجل إلى سعيد ويسأله) :

أفتنى يا إمام ، لقد حلفت على امرأتى بالطلاق ثلاثا : أن الحجاج
فى النار ، فهل تطلق امرأتى ؟

سعيد : سل الشعبي يجيبك .

الرجل : (يتوجه إلى الشعبي) ما قولك ؟

الشعبي : أيها الرجل ، لئن كان الحجاج فى الجنة بعد كل الذى فعله فوالله
ما يضرك أن تعيش مع امرأتك على حرام ؟!

الرجل : شفيت والله صدرى .

(يتقدم آخر ويسأل الشعبي) :

الرجل الآخر : أجبني يا إمام أيدك الله . هل الحجاج كافر أم مؤمن؟؟

الشعبي : (ساخرا) الحجاج مؤمن .

الرجل الآخر : (منكرا) الحجاج الغاشم الطاغية الجبار قاتل المسلمين وعدو

الصالحين، ومذل الأحرار وفرعون العرب، مؤمن!!؟؟!

الشعبي : نعم مؤمن بالجبت والطاغوت .. وكافر بآيات الله!

الرجل : أما هذا فنعم .

(يدخل السجنان ، فيجد القوم صامتين مطرقتين) ..

السجان : ما لكم سكتتم حين دخلت عليكم؟

سعيد : رحم الله امرءا قال خيرا فغنم أو سكت فسلم .

السجان : أيها الشيخ، إني أراك من الصالحين، فما تقول في أعوان

الظلمة!

سعيد : أعوان الظلمة كلاب جهنم يعوون فيها كما تعوى الكلاب .

السجان : ما تقول فيّ؟ أنا من أعوان الظلمة؟

سعيد : لا، أعوان الظلمة مثل من يغسل لك ثوبك، ويطهوك

طعامك ... وو

السجان : (مستغربا) وأنا؟!

سعيد : أنت؟ .. أنت من الظلمة أنفسهم . ألسنت تساهم في تعذيب

خلق الله؟ إن الله تعالى حين لعن فرعون وهامان، لعن معهما جنودهما. قال تعالى: ﴿فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾ وقال: ﴿إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين﴾.

السجان: ولكنى لا أستطيع أن أقول: لا!!

سعيد: لو لم يعرفوا فيك القسوة ما ولوك هذا الأمر.

السجان: إني أتقاضى على ذلك أجرا، لولاه جاع أولادى.

سعيد: رزق الله فى كل مكان، فإن شئت فابحث عن عمل آخر، ولا تشارك فى ظلم. ومن صدق الله، صدقه الله ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا، ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾.

السجان: (يرفع يديه إلى السماء) اللهم إنك تعلم أنى أعمل سجانا عند هؤلاء الحكام وقلوبى يعلنهم. اللهم إنى أعوذ بك أن أكون ظالما أو عوناً لظالم. اللهم اغفر لى ما مضى واجعل لى مخرجا مما بقى.

(ستار)

(المنظر الثاني)

(الحجاج في مجلس الإمارة متكئا على أريكته، وعلى يساره بعض حاشيته.
يدخل رئيس الشرطة).

الحجاج: أحضروا المتهمين الثلاثة واحدا بعد الآخر.

(يدخلون عليه مطرف بن عبد الله)

الحجاج: عرفت ما كتبه أمير المؤمنين في شأنكم؟

مطرف: عرفت.

الحجاج: أكافر أنت أم مؤمن؟

مطرف: أصلح الله الأمير، إن الذي شق العصا، ونقض العهد وخان الأمانة،
وفارق السنة، وأخاف المسلمين، لجدير بالكفر.

الحجاج: (لمن حوله في نشوة النصر):

لقد اعترف بكفره ونجا، خلوا عنه.

الحاشية: (بعض الحاشية لبعض في خفوت) والله لكأنما يعرض بالأمير!

(يدخل الشعبى والحاجب يسر له في أذنه) اعترف له بأنك كافر

وانج برأسك.

(وكان الحجاج خافضا رأسه لم يشعر به، فلما رفع رأسه رآه).

الحجاج: وأنت يا شعبى فيمن أعان علينا وألب وسعى في الفتنة؟

الشعبي: أصلح الله الأمير. لقد نصحنى الناس بأشياء أقولها لك، أرضيك بها وأسخط الله عز وجل، ولست فاعلا. ولكنى أصدقك القول: لقد خبطتنا أيها الأمير فتنة عمياء، لم نكن فيها بررة أتقياء، ولا فجرة أقوياء، حتى كان من أمرنا ما كان.

الحجاج: (لحاشيته) صدق. والله ما كانوا بررة أتقياء، فتورعوا عن قتالنا، ولا فجرة أقوياء فيقدروا علينا.

انطلق يا شعبي، لقد عفونا عنك.

هاتوا شيخ السوء، ورأس الفتنة

(يدخل سعيد بن جبير)

الحجاج: (متجاهلا) من أنت؟

سعيد: سعيد بن جبير.

الحجاج: بل شقى بن كسير.

سعيد: أمى كانت أعلم باسمى واسم أبى منك.

الحجاج: شقيت وشقيت أمك.

سعيد: إنما يشقى من كان من أهل النار، فهل اطلعت على الغيب.

الحجاج: لماذا فررت واختفيت هذه المدة كلها؟

سعيد: أقول ما قال موسى عليه السلام: ﴿ففررت منكم لما خفتكم﴾.

الحجاج: (محتدا) أتعرض بى؟

سعيد : (هادئا) بل أقرر واقعا .

الحجاج : أكافر أنت أم مؤمن ؟

سعيد : (فى قوة) ما كفرت بالله منذ آمنت .

الحجاج : تدعى الإيمان أيها المنافق !! والله لأوردنك حياض الموت !

سعيد : (فى ثقة وارتياح) إذن أصابت أمى حين سممتنى سعيدا . فأى

سعادة أعظم من الشهادة فى سبيل الله وجوار سيد الشهداء حمزة

ابن عبد المطلب ؟

الحجاج : (ساخرا مهددا) لن تجاور إلا الخوارج والمارقين ولأبدلنك بالدنيا

نارا تلتظى .

سعيد : (واثقا) لو علمت أن ذلك بيدك ، لاتخذتك إلها من دون الله !

الحجاج : (مغتاظا) ويلك يا شقى !!

سعيد : إنما الويل لمن زحزح عن الجنة وأدخل النار .

(يتجه الحجاج بالحديث إلى ناحية أخرى)

الحجاج : ما قولك فى الخلفاء ؟ وأيهم أفضل ؟

سعيد : (يسد هذا الباب عليه) :

لست عليهم بوكيل ، وماأنا عليهم بحفيظ .

الحجاج : أيهم أحب إليك ؟

سعيد : أرضاهم لخالفه عز وجل .

الحجاج: ومن منهم أَرْضَاهُمْ لخالقهِ؟

سعيد: علم ذلك عند من يعلم سرهم ونجواهم.

الحجاج: أبيت أن تصدقني؟!؟

سعيد: بل لم أرد أن أكذب عليك.

الحجاج: وما تقول في معاوية؟

سعيد: لقد شغلني أمر نفسي عن تتبع أعمال الرجال والحكم عليهم.

الحجاج: تفر من الجواب؟!؟

سعيد: طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس.

الحجاج: ما رأيك في اقتتال على ومعاوية؟

سعيد: تلك دماء طهر الله منها أيدينا، فلنطهر منها ألسنتنا.

الحجاج: وما تقول فيّ؟

سعيد: أنت أعلم بنفسك.

الحجاج: ولكنني أريد أن أعرف رأيك.

سعيد: إذن يسؤوك ولا يسرك.

الحجاج: ولو.. أريد أن أعرفه.

سعيد: أعفني.

الحجاج: لا عفا الله عني إن عفيتك.

سعيد: إن كان ولايد فيأني لأعلم أنك مخالف لكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وهدى الراشدين من خلفائه . ترى من نفسك أمورا تريد بها حفظ هيبتك وتمكين سلطانك وهى تقحمك الهلكة وسترد غدا على الله فتعلم .

الحجاج: ألم أرسل الجيوش لتقاتل فى سبيل الله؟ ألم أبعث محمد بن القاسم الثقفى لفتح بلاد السند؟ ألم أوطد دعائم الأمن فى ديار العراق؟

سعيد: بلى .. ولكنك جبار فى الأرض، مسرف فى الدماء، والرسول ﷺ يقول: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل امرئ مسلم» فكيف بمن قتل الألوف من المسلمين؟

إنك تريد يا حجاج أن تتخذ عباد الله عبيدا لك يطيعون فى المعروف والمنكر، ويقولون فى الحق والباطل سمعنا وأطعنا . وديننا لا يقر الطاعة إلا فى المعروف ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

الحجاج: (كالمعتذر) أو تريد أن نترك الطامعين والمتربصين حتى يفتكوا بنا؟ لا بد أن نتغدى بهم قبل أن يتعشوا بنا .

سعيد: ولكن دين الله لا يعرف هذه الوجبات المنكرة . الغداء بقوم والعشاء بآخرين! لو كنت تريد الآخرة يا حجاج لم تؤثر عليها سلطانا إن بقي اليوم زال غدا .

(الحجاج يظهر التجلد، ويكظم غيظه، ويتجه بالحديث وجهة

أخرى):

الحجاج: أنا أحب إلى الله منك .

سعيد: الله أعلم بالغيب، وستوفى غدا كل نفس ما كسبت، وهم لا يظلمون .

الحجاج: أنا مع إمام الجماعة، وأنت مع إمام الفرقة والفتنة .

سعيد: الجماعة ما وافق الحق، وإن كنت وحدك، كما قال ابن مسعود رضى الله عنه . والفتنة هي اضطهاد الناس فى دينهم .

الحجاج: هذه آراؤك الضالة التى تلقنها لتلاميذك .

سعيد: بل هو علم رسول الله ﷺ، أخذه عنه أصحابه، ورويناه نحن عنهم .

الحجاج: ألا ترى ما نجتمع لأمير المؤمنين!

سعيد: لم أر شيئا .

الحجاج: يا غلام، أحضر من الذهب والفضة والكسوة والجوهر .

(فأحضره فوضعه بين يدى الحجاج)

الحجاج: ما قولك فى هذا؟

سعيد: هو حسن إن قمت بشرطه .

الحجاج: وما شرطه؟

سعيد: أن تأخذه من حله، فتضعه فى حقه، ولا تبخل به عن أهله، وإلا

ففرعة واحدة يوم القيامة تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها .

الحجاج: أتحب أن لك من هذا شيئا؟

سعيد: لا أحب ما لا يحب الله .

الحجاج: دعنا من هذا كله، يقولون إنك لم تضحك قط!! فما سر هذا؟

سعيد: لم أجد في الحياة ما يضحكني!! وكيف يضحك امرؤ طريقه من فوق جهنم؟ لا يدرى أمير من هناك ناجيا أم يسقط فيها جاثيا؟! ﴿وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا﴾ .

الحجاج: فما بالنا نحن نضحك؟

سعيد: لم تستو منا القلوب . وكل ميسر لما خلق له .

الحجاج: ألم تسمع إلى العود والناى؟!

سعيد: لقد شغلنى أمر آخرتى عن لهو الحديث .

الحجاج: أحضروا العود والناى .

(يحضر الناى فينفخ فيه نافخ فيبكى سعيد)

الحجاج: ما الذى يبكيك؟! إنما هو اللهو والطرب!

سعيد: بل هو الحزن والكمد . لقد ذكرنى هذا النفخ أمرا عظيما: ﴿يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا﴾ . ﴿ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداد إلى ربهم ينسلون﴾ .

الحجاج: أتخذعنى برفائق الكلام لأعفو عنك؟

سعيد: (شامخا) إن كان العفو من الله، وأما أنت فلا براءة لك ولا عذر يا حجاج.

الحجاج: (فى غضب) فاختر لنفسك أى قتلة تريد أن أقتلك!!

سعيد: (فى صرامة) بل اختر لنفسك أنت يا حجاج. فوالله ما تقتلنى قتلة إلا قتلك الله مثلها فى الآخرة.

الحجاج: والله لاقتلنك قتلة لم أقتلها أحدا قبلك، ولا أقتلها أحدا بعدك!!
سعيد: إذن تفسد على دنياى، وأفسد عليك آخرتك.

الحجاج: يا غلام. السيف والنطع

(يحضر الغلام النطع والسيف)

الحجاج: خذوه.

(ياخذه الغلام. فلما ولى ضحك، فأخبره بعض جلسائه أن سعيدا ضحك)

الحجاج: ردوه.. ألم تقل إنك لم تضحك قط، فما الذى أضحكك الساعة؟

سعيد: أضحك من جراءتك على الله تعالى، ومن حلم الله عليك.

الحجاج: (مغيظاً) اقتلوه.. اقتلوا هذا الرجل.

سعيد: (وقد أتجه إلى القبلة):

﴿وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً، وما أنا من
المشركين﴾ .

الحجاج: وجهوه إلى قبلة النصارى، الذين تفرقوا واختلفوا بغيا بينهم، فإنه
من حزبهم .

سعيد: (مبتسماً):

﴿ولله المشرق والمغرب، فأينما تولوا فثم وجه الله﴾ .

الحجاج: (يشدد غيظه) كبوه لوجهه . اجعلوا وجهه إلى الأرض .

سعيد: ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ .

الحجاج: اذبح عدو الله، فما أسرع لسانه بالقرآن .

سعيد: أما إنى أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله . خذها
منى حتى تلقانى يوم القيامة يا حجاج .. اللهم لا تسلطه على
أحد يقتله بعدى .

(ستار)

(المنظر الأخير)

(الحجاج نائم على سريرته، مستغرق فى نومه، وفجأة يفرع ويصيح):
الحجاج: أنقذونى! أنقذونى! أنقذونى! خلصونى منه! إنه يريد أن
يخنقنى .. يريد أن يقتلنى!
(يدخل عليه غلام له)

الغلام: من هو ياسيدى؟ لا أحد هنا!
الحجاج: إنه هو.. هو.. س.. س.. س.. سعيد.
الغلام: سعيد .. من؟
الحجاج: ويلك! سعيد بن جبير. يأخذ بخناقى .. سيقتلنى.
الغلام: سعيد قتل من أسبوعين.
الحجاج: أنت تخرف. إنه لم يمّت .. لقد رأيتته الساعة كالجمل الهائج ..
يريد أن يلتقمنى.
الغلام: هذه أوهام وأضغاث أحلام يا سيدى .. سعيد مات .. قتل .. أنت
قتلته.

الحجاج: لا .. لا .. أنا لم أقتله .. أنا لم أقتله .. هم الذين قتلوه ..
الغلام: أنت أو هم. المهم أنه قتل ومات ودفن.
الحجاج: يا أحمق! .. تريد أن تقنعنى بموت رجل كان على رأسى منذ

لحظات، وقبضته على عنقي؟!!

ويل للحجاج! لم يعد يصدقه أحد حتى غلامه. أغلق على الباب
ودعنى!

(يخرج الغلام ثم يقف ويقول):

الغلام: سبحانك اللهم! تعز من تشاء وتذل من تشاء. وإن ذل الحجاج
اليوم لبرهان على وجودك وعدلك يا أحكم الحاكمين!.

(يستلقى الحجاج على سريره.. وما هى إلا لحظات حتى يطن فى
أذنه هذا الصوت)..

– بل اختر لنفسك أنت يا حجاج! فوالله ما تقتلنى قتلة إلا قتلك
الله مثلها فى الآخرة.

(يفرع الحجاج مرة أخرى)

الحجاج: آه.. أرجوك.. أرجوك.. لا تقتلنى.. لا تقتلنى.. آه.. آه.

(يدخل الغلام)

الغلام: ما بك يا سيدى؟! هون عليك.. لا تخف.

الحجاج: كيف لا أخاف؟! إن شبحه لا يفارقنى.. إنه أمامى ها هو.. ألا
تراه؟

الغلام: (بصوت خافت) يا عجباً!! الحجاج الذى أخاف الألوف، يخاف
اليوم من شبح.

الحجاج: (وقد سمعه): إنه ليس شبحاً يا غبي. إنه سعيد بشحمه ولحمه.
إنه مصرٌّ على قتلى.

الغلام: (ساخراً): ولم هذا الخوف من القتل؟! طالما قتلت الألوف، فذق
اليوم طعم الذى أذقته للناس.

الحجاج: (مغضباً): أتشمت بى يا وغد؟! لئن عشت لأجعلنك نكالا
وعبرة.

الغلام: أجبار وأنت على فراش الموت؟! تواضع لله ساعة قبل موتك..
ولكن هيهات. وصدق الله العظيم: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه
وإنهم لكاذبون﴾.

(الحجاج يسقط من على السرير)

الحجاج: آه.. مالى ولسعيد بن جبير؟! مالى ولسعيد بن جبير!؟

(يشدد فزعه، ثم يشهق شهقة فيموت)

(وعندئذ يُسمع صوت لا يرى صاحبه):

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:

﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون، إنما يؤخرهم ليوم
تشخص فيه الأبصار. مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم
طرفهم، وأفئدتهم هواء﴾.

(ستار)

«تمت»

محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة
٦	الفصل الأول
١٧	الفصل الثاني
١٧	المنظر الأول
٢٧	المنظر الثاني
٣٠	الفصل الثالث
٣٠	المنظر الأول
٣٦	المنظر الثاني
٤٥	المنظر الأخير
٤٨	محتويات الكتاب

رقم الإيداع ٨٨/٥٣٣٧

ترقيم دولي ٩٧٧-٣٠٧-١٥٤-٥